قراءة فيكتاب"خطابُ التّأنيث" ليوسفوغليسي.

أ.علاوة كوسة

-جامعة سطيف02-الجزائر

ملخص:

نتناول في هذا المقال موضوعَ: استراتيجيات تلقيالخطاب الشعري النسوي في الجزائر، وذلك من خلال أنموذج نقديوهو كتاب "خطاب التأنيث" للأستاذ الدكتور "يوسف وغليسي"،الذي حاول من خلاله أن يقف عند محطات بارزة في مسار الكتابة الشعرية النسوية بالعربية في الجزائر.

Abstract:

This article highpoints the Arabic feminine poetic discourse in Algeria. It places interest, also, on the problems of reading and criticism through "Feminist Discourse" (khita'b ta'anith) by OUEGHLISSI Youssef.

مقدمة:

نحاول في مقالنا هذا الوقوفَ عند هذا المسح الكمي المعتبر للمدونة الشعرية النسوية من جهة؛ وكذا تتبع الإجراءات المنهجية والمنظومة الإجرائية لدى الناقد في تتبع حيثيات النص الشعري النسوي الجزائري، وجماليات الكتابة النسوية بكل خصوصياتها وتمفصلاتها،وفي جوانبها الفنية والموضوعاتية،معرجين على أهمية هذه المقاربة وقيمتها في المشهد النقدي الجزائري المعاصر؛وذلك لما تكتسيه مثل هذه المقاربات القليلة للكتابة الأدبية عموما والشعرية خصوصا في المنتج النسوي من أهمية ، في خضم ثورة الأشكال الفنية والمضامين الزئيقية في المشهد الشعري عموما والنسوي بالخصوص.

كما أننا اتكأنا في بحثنا ورقتنا هذه على إجراءات المنهج الوصفي التحليلي ،المساعد على البحث في حيثيات تناول الدكتور يوسف وغليسي لموضوع الشعر النسوي العربي ف الجزائر؛حيث وصفنا الظاهرة النقدية لهذا المنتج بأدوات الناقد العلمية الأكاديمية،مستعرضين المنهج الذي توسل به في مقاربته لهذه المدونة الشعرية الضخمة

كمّا وكيفا،كما عرضنا استراتيجياتِ القراءة والتلقي لدى الناقد وحللّنا نماذجَ من نقذه للخطاب الشعري النسوي العربي في الجزائر.

إن المنتج الأدبي – على اختلاف أشكاله و محمولاته – يحتاج إلى وقفات تقييمية ، ومواقفَ نقديةٍ بأدوات و مناهجَ تتعدد لتقارب ولتكشف أغوارَ النص وتفكَّ مغاليقَه، حيث تتلقاه لتعيد إنتاجه و تقديمه لقارئ/منتج آخر في سلسلة التلقي اللامتناهية . حيث " النقد تحليل القطع الأدبية و تقدير ما لها من قيمة فنية " [1]، بكل الإجراءات المنهجية التي من شأنها تحسس مواطن الجمال في النص الأدبي ، و النقد يُعنى أيضا برصد و " تحديد خصائص الكاتب النفسية و الاجتماعية والجمالية وكذا سمات تعبيره اللغوية "[2]، أي الوقوف على مقومات الظاهرة الأدبية ، ومرتكزات التجربة الإبداعية من أنساق النص المتكئة على سياقات مهما حاولنا تغييبها فإنها تتمظهر في سِرّية فنية ، و تتجلى في أعماق المتون النصية .

إن التلقي النقدي لخطاب أدبي ما، إنما هو وساطة بين الذات المبدعة والذات المرتقبة للنّص فنكون عندها أمام " تدوير قرائي " ، وحلقة نصّانية متعددة الأطراف ،وبرغم ذلك فإنه " ما لم يستطع الناقد أن يحدد لقارئه القيمةَ الحقيقية للعمل الأدبي ، فإن هناك خطورة شديدة في منهج التحليل الوصفي"[3] لهذا العمل . ومن ثمة فإن على الناقد أن يتسلح – قدر ما استطاع – بأدوات منهجية ، وأسلحة نقدية ، ومرتكزات معرفية ، و متكآت جمالية ، في اقترابه / تماهيه من النص الأدبي ، لأن النصوص الأدبية المعاصرة قد صارت على قدر لا يستهان به من الإغواء الفني ، والفتنة الجمالية والتشظي الموضوعاتي، بل انفتحت على عوالم جديدة؛ من حيرة الفلسفة، وقلق التاريخ، وعمق النفس، وهوس السياسة، وأسئلة الفكر، ورؤى العصر جميعها حينما تتمثلها حواسُ الأدباء وكتاباتُهُم، وإنّ للحداثة تداعياتِها على المنتج الأدبي، وظلالهَا على النصوص أيضا.لذلك كان على النقد أن يعيد تأهيلَ أدواته، ومناهجِه، وإجراءاتِه، ويعيدَ تعبيدَ دروب مقارباتية، علّه يصل مملكةَ النص، ويتذوق – مستوعبا – فيوضاتِ معانيها، " ولقد وقف النقد الحداثي حائرا ، وهام على وجهه من خلال النصوص الحداثية بدون قائد أو دليل ، وتخبط بين

الأوهام و الأحلام و التفكك "[4]لذلك احتاج النص الأدبي المعاصر إلى مناهجَ جديدة تليق بمحمولاته ، و مقولاته و رؤاه .

إنّ الإشكالية بين المنتج الأدبي و تلقّيه نقديا ، هي إشكالية جوهرية في مشهدنا الأدبي – النقدي في الجزائر ، حيث إن النصوص الأدبية عموما و الشعرية خصوصا – على اختلاف قيمة الجمال والإبداع فيها – تحتاج إلى بحث عميق في شقها الفني أولا، وإن كانت مسألة إحياء المغمور منها ، مشكلة أخرى في زمن النقد الإشهاري ، والنقد التشهيري .

وعليه فقد حاولتُ في هذه الوقفة النقدية ، أن أقف على جهد نقديّ لافت ، ومسائلٍ ومساءَلٍ ، في الوقت نفسه ، متمثلا في كتاب " خطاب التأنيث " للدكتور يوسف وغليسي ، والذي تناول من خلاله الشعر النسوي العربي في الجزائر ، إذْ تناول بالدرس أعمالَ ما يفوق ثمانين شاعرة جزائرية .

وتوقف عند كثير من جماليات قصائدهنّ ، مستعرضا بنياتِها الفنيةَ ، الأسلوبيةَ ، مستقصيا قضايا الشعر النسوي الجزائري بلغته العربية .

فما منطلقات وغليسي و أدواته النقدية ؟ و منهجيته المصاحبة لحسّه و ذوقه ورؤاه كشاعر يعرف بيت الشعر من الداخل أيضا ؟ و ما الذي يميز جهدَه عن جهود من سبقوه إلى تناول الشعر النسوي الجزائري ؟ و ماهي استراتيجيات تسليط الأدوات النقدية – الصارمة دائما في منطق وغليسي – على النّص الشّعري النّسوي الرقيق اللطيف ؟ .

إن قارئَ كتابِ " خطاب التأنيث " يحس للوهلة الأولى أنّ هناك نوايا نقديةً جادةً تتمالك وغليسي، و أسلحةً منهجيةً دقيقةً يتملكها في ولوجه قلاعَ النّص النسوي المسيَّج بمفاتيح كثيرة لمغاليق تستدعي الإحاطةَ – أوّلا – بجهد السابقين إلى قلاعهن ،و من ثمة الإتيان بالجديد ، و ذلك دأب وغليسي حيث يعترف لحظة البدء قائلا " إن هذا الكتاب الأخير زمانه ، لا يخفي عزما معقودا على محاولة الإتيان بما لم تستطعه الأوائل ، من خلال الإفادة من إنجازاتهم و أخطائهم على السواء ، و من خلال التسلح بمعطيات

منهجية مختلفة ، تمتح أدواتها من خطابات ما بعد البنيوية (نقد نسائي . نقد ثقافي...) و تستذكر ما قبلها من المفاتيح المنهجية الأخرى " [5] . و لعل تقديمه هذا إنما هو ثقة بالأدوات، وإضاءة منهجية و منطلق نقدي واضح في التوكؤ المتعدد على مناهج نقدية مختلفة السياقات والأنساق وكذا الإجراءات، ولكنها تصب في عوالم النص .

و لعل يوسف وغليسي يثق في المنهج التكاملي، أو النقد التكاملي، أو منهج اللامنهج ، حيث تحتاج بعض النصوص أن نقاربها بأكثر منهج لنتحسّس فيها كل ما من شأنه أن يثير فيها الرغبة الجمالية فتراود الناقد –بكل ما تختزنه– عن أدواته و أيضا في الكشف و الاكتشاف ، وفي فكّ مغاليقها .

و لعلّ رغبة الاكتشاف تملكت وغليسي فراح يتلقى المنتجَ الشعري النسوي بإرادة متعددة ، بين إظهار الجديد الأسمائي ، و الموضوعاتي ، و الفني ، في النماذج المدروسة ، حيث اعترف قائلا : "وكم يسعدنا أن يحيي الكتابُ أسماءَ شعرية نسوية منقرضة يتعرف إليها العارفون بالنص الشعري الجزائري أول مرة، وأن يعيد اكتشاف أسماء أخرى ظلمها النقد و تاريخ الأدب، و أن يعيد النظر في أصوات أخرى كرسها الإعلام والتجامل النقدي " [6] ، ولعلها شجاعة نقدية، و حكْمٌ جريء في موضعه، حيث أنهك التجاملُ النقدي كاهلَ المعرفة الحقيقية بأمور منتجنا الأدبي عموما والشعري خصوصا .

كما أن اعتراف يوسف وغليسي بأن هناك دراساتٍ نقديةً سبقته إلى حمى القصيدة النسوية هو إقرار جميل لجهد سابقيه ومنهم من لم يكن له من السبق إلى السبق، ولكن وغليسي يحترم دائما إرث السابقين من النقاد والدارسين ويثق في أدواته النقدية التي يشهرها في حينها دائما كي يبدع نقدا و ينقد إبداعا وهو حال الشعراء النقاد فيقول : " ليس كتابنا هذا هو أول العهد بالخطاب الأدبي النسوي في الجزائر . بل سبقنا إلى ذلك باحثون آخرون تنالوا هذا الخطاب بطرائق شتى ، لعل أولهم الشاعر والباحث السوري أحمد دوغان الذي كان سباقا إلى دراسة الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر ثم جاءت كتابات علمية أخرى ، لناصر معماش و فضيلة الفاروق وباديس فوغالي ..."[7].

و لكننا في مقالنا هذه سنحاول أن نقف على الرؤى النقدية الجديدة ليوسف وغليسي ، ونستعرض استعراضه لأدواته المقارباتية ، و فنياته في تحسس الجسد النصي النسوي الرقيق ، و قدرته على التعايش مع العوالم المؤنثة في أشعارهن ، و بين قسوة منهج ، ورقّة نصّ ، تتمظهر الأنوثة في أسمى جمالياتها ، فما حدود شاعريتهن و شعرية نصوصهن أمام ناقد شاعر ؟

أولا : في حدود المصطلح و فتنته :

إن المتابع للمنتج النقدي ليوسف وغليسي يكتشف أنه يعمد دائما إلى ضبط المصطلحات المفاتيح لموضوعه المدروس قبل التفصيل في حيثياته و هو العارف بـ "إشكاليات المصطلح في الخطاب النقدي العربي " ، و لأن فهمَ المصطلح و ضبطَه هو شطر من المساءلات النقدية للمنتج الأدبي أيضا، و لعلّ المتتبع –أيضا– للخطاب النقدي العربي يقف على كثير من المصطلحات المختلفة ، المتباينة و التي حاولت أن تدل على منتج المرأة أدبيا و نقديا ، و منها "أدب المرأة ، الأدب النسائي ، الأدب النسوي ، أدب الأنوثة ، أدب الحريم ، الأدب الجنوسي ، النقد النسائي ، النقد الجينثوي ، النقد البيولوجي ، النقد الأنثوي ، النصوص الذكرية، النصوص الأنثوية ، التحليل النقدي النسائي ، المركزية الأنثوية ، التمركز القضيبي"[8]، و لعلها مصطلحات كلها ذات منطلقات تفريقية أفرزها صراع التذكير و التأنيث و" لكن الأدب النسوي المفترض هو أدب تكتبه المرأة أولا ، و تتأثر عادة رؤاه و أساليبه بالفارق " الجنوسي " بينها وبين الرجل وتحكمه رؤية للعالم "[9]، و هذا – في اعتقادي– من أدق التعاريف/ المفاهيم التي صادفتني حول مصطلح الأدب النسوي .

و في تعريج مصطلحاتي مفاهيمي للكتابة النسوية يرى الشاعر عبد الحميد شكيل "أن الكتابة النسوية في الجزائر – لحد الساعة – لم تتأسس مفهوما نقديا جماليا، يحسن الركون إليه و القيام من خلاله بدراسة حقيقية "[10] .

ثانيا : عتبات أبواب البيت الشعري النسوي :

إن الحديث عن النص الشعري النسوي هو حديث عن كل ما يختزنه من الداخل وما يسيجه من الخارج ، وإن لأبواب البيوت الشعرية – بكفاءتها الأنثوية الرقيقة – عتباتٍ عديدة و لعلّ المقدمات الذاتية و الغيرية عادة ما تتقدمها – تتصدرها ، و "ليس خطاب المقدمات هذا سوى جزء من نظام معرفي عام هو ما يطلق عليه في الاصطلاح الفرنسي PARATEXTE وتعني مجموع النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه : حواشٍ وهوامش وعناوين رئيسة وأخرى فرعية وفهارس ومقدمات..." [11]، و تكتسي المقدمات أهمية بارزة في إغواء ، إغراء ، تهيئة القارئ / المتلقي، ومراودته عن فضوله القرائي وحسه الفني والمقدمات تكتسب أهميتها من مكانها وتمركزها في فضاء النص و "على مستوى المكان فتعتبر أول مكتوب " [12]، لذلك تكتسب تمكنها من نفس وحس وعين القارئ بحكم أوليتها. حيث المكان الأول، الحب الأول ، المقروء الأول دائما ذو شرعية تاريخية .

و" إن المقدمة موقع نصي حساس يتيح للمؤلف أن يستدرج قارئه إلى حيث يريد دون أن يدري ، يكفي فقط أن يسلط عليه كل وسائل الإغواء و الإغراء كي يسقطه صيدا ثمينا يبادله متع القراءة و لذاذات التلقي " [13] و من ثمة فقد حاول وغليسي أثناء تناوله المنتج الشعري النسوي أن يقف عند هذه المقدمات، والتي كانت كلها مقدمات غيرية ، حيث قدم لأعمالهن غيرهن ، و كانت كل المقدمات " ذكورية " ، وهي المفارقة التي قولت وغليسي : " هكذا ندخل بيوت الشعر النسوي من أبوابها الذكورية إذن، وهكذا تفضح العتباتُ المذكرة نصوصَها المؤنثة ، لتكشف عن شروخ نفسية عميقة في أعماق المرأة الشاعرة التي لا تزال تمارس الكتابة تحت عقدة خصاء راسخة " [14]ولعله انتباه متوقد ، و وقوف واعٍ عند هذه المفارقة / التناقض / التغاير / التداخل، بين نص نسوي بكل متكآته الأنثوية، إن نفسيا أو جماليا ...) ، و بين تقديم ذكوري بكل منطلقاته المقابلة / المتضادة ... المختلفة ... عنهن ، حيث " النسبة الساحقة من مقدمات الدواوين النسوية قد دبجها كتّابٌ رجال ، و الرجل هو من يضفي الشرعية على الممارسة الشعرية

الأنثوية ، أما المرأة فلا تملك إلا أن تتستر به وتختفي خلفه خوفا، و ضعفا " [15] ، و طمعا في كثير من الأحيان .

لقد قدّم الأخضر السائحي لمبروكة بوساحة ، وأحلام ومستغانمي، وقدم الدكتور علي ملاحي لجميلة طلباوي ، والسعيد بوطاجين لراوية يحياوي ...

ومن يطّلع على أعمالهن الشعرية ومقدماتها الذكورية ، عليه أن يربط بين المقول المقدماتي والمقولِ الشعري ليحسبالتجامل النقدي و الإشهار (غير المجاني) لبعض المقدمين، وإذا كان وغليسي لم يشأ أن يتعمق أكثر في القضية رأفة بهما مقدِّما ومقَدَّما .. فإن أستاذه الدكتور عبد الملك مرتاض انتفض على بعض كتاب المقدمات غير المتخصصين و لا الأكاديميين و ما عاثوا فيه – تغليطا – من خلال ما قدموه و مَن قدموه حيث يقف حائرا أمام " الشعر المعاصر الذي يجرؤ على التصدر لكتابته في بعض الأطوار كل من سولت له نفسه أن يكتب ما يكتب ليدعي له الشعرية " [16] أو يكون عرابا للشاعر ، و لكن الاستثناء صنعته بالحرف نسيمة بوصلاح حينما كتبت تقديما ذاتيا تكفر فيه بالعراب الأدبي ، لأن النص هو وحده من يبيع للقارئ كنوزَه .

وفي هذه المحطة العتباتية تكتشف أنّ وغليسي قد وقف على حقائق رهيبة في بعض مكونات الخطاب الشعري النسوي في الجزائر ، و هي أن هذه المقدمات أسوار متقدمة لحماية قلاعهن الشعرية، و هي وقاية من الخوف ، وهاجس ثبوت شرعية جنوسية، واتكاء غير بريء على جدران بعضها ليس على أساس علمي و نقدي صحيح .

ثالثا : موضوعات الشعر النسوي الجزائري و قضاياه :

لا يكاد النصُّ الشعري – عامة – يخلو من موضوعات تتشكل جماليا بالصيغ التي تناسبه، ومن ثمة فإن النص الشعري النسوي كخطاب أنثوي لا نستبعد أن يرتكز على قضاياه أيضا، وإذا كان الخطاب النسوي مؤنثا فإن لذلك تداعيات على شركاء فنيين آخرين كاللغة والأسلوب والمضمون أيضا، ومن هذا المنطلق فقد حاول وغليسي أن يتحسس القضايا التي شغفت الشاعرة الجزائرية إبداعا، وتضمينا، حيث أنه" كان أولى

بالأنوثة الشاعرة أن تستقل بعوالمها الموضوعاتية ، أو تقييمها بعيدا عن قوامه الموضوع الذكوري ، فمن حق المرأة أن تجعل أنوثتها موضوعا لنصها " [17]بدلا من أن يظل الآخر/الذكر موضوعا لشعرها، متوجهة إليه من الأول خطابا إشاريا، أو منطلقة من ذاتها لتصل إليه و تتمركز حوله، جاعلة منه بؤرة الحوار بين ذاتها المبدعة / المشغولة بهوبين ذاته المخاطبة المشتهاة لحاجات في مضامينها. وتلك حقيقة وواقع موضوعاتي في منتج نسوتنا الشاعرات رغم أن " هناك من يعترض على الفكرة أصلا رفضا لفكرة تجنيس الموضوع الأدبي الذي يرفض القسمة الضيزى (موضوع رجالي، موضوع نسائي) لأن الموضوع محايد أصلا ..." [18].

إن المسح الموضوعاتي الذي أجراه وغليسي على هذا الكيف الهائل من النصوص الشعرية النسوية الجزائرية ولهذا العدد الكبير – غير المسبوق – للشاعرات – 87 شاعرة – جعله يقول بأنه " من الإنصاف لهذه الأنوثة أن نشير إلى أنها عبرت عن قضاياها و هواجسها الداخلية على لسان شاعرات قليلات في نصوص تعكس قضايا الأنوثة و طباع الأنثى (الحنو ، الضعف ، الغنج ، الغيرة ، الكيد، التقلب، التحمل، الجمال ...) يبدو ذلك جليا في نصوص: جميلة زنير و نادية نواصر، وسلمى رحال، و زهرة بلعاليا، وحبيبة محمدي و نصيرة محمدي وسميرة قبلي وزينب الأعوج وربيعة جلطي... وذلك بمستويات مختلفة طبعا " [19] ، و علينا أن نتوقع – آليا – بأن هناك موضوعات – غير أنثوية – قد كان لها حظ الأغلبية في المتن الشعري النسوي الجزائري ، هي الموضوعات الذكورية التي صار الشاعرات ينطلقن منها إليها بكل محمولات الذكر /الآخر من تمظهرات : الحبيب، العشيق، العدو، الخائن، الصديق، الحلم ، الأمس ، الذاكرة ، الـ.....

إن الأدهى – نقديا – أن ينتبه وغليسي إلى نماذج شعرية نسوية حاولت أن تنطلق إلى الآخر محايدةً ، متجنبةً المنطلق الجنوسي الافتراضي ، لكنها بهرمونات رجالية، على الرغم من محاولات أسلبة اللغة ، كي تخشوشن في سياقات ناعمة أنثوية " فثمة غاية أخرى من النصوص النسوية المحايدة التي تحتفي بالموضوعات العادية العامة، التي سبق للشعراء الرجال احتكارها " [20]، حيث كتب بعضهن عن فلسطين (كمبروكة بوساحة في

قصيدة " أيقظوا تشرين") ،و هرب بعضهن إلى حواشي موضوعاتية أخرى ، إذ يورطن اللغةَ و يداخلن بين السياقات ، و يتأرجحن بين طرفي (جنوسة) أعيت زادهن الشعري كثيرا على قلته " و هكذا تسلب المرأة أنوثتها، فتؤسلب لغتها باستعمال كلمات مغمسة في ماء شعر الفحول . بل كثيرا ما تتخذ مثل تلك المرأة من شاعر فحل حاديا لها، تقلب أسلوبه الذكري أو تتناقص معه، كما تفعل الخنساء مع الشاعر الجاهلي ، وجميلة عظيمي مع مفدي زكريا ، ومبروكة بوساحة مع الأخضر السائحي " [21]

إنّ الشاعرة الجزائرية تتكئ على الذكر جماليا و موضوعاتيا ، و في أقصى هروبها منه تعود إليه، وتتخذ من نصوصه و فنياته و موضوعاته مرجعا لها – ومن ثمة يحكم وغليسي بقساوة علمية صحيحة ، في كتابة خطاب التأنيث قائلا : " إن الشاعرة الجزائرية امرأة مهزومة في أناها الأنثوي " [22]، مدللا على ذلك بدهاء قرائي كبير بأنه" راحت تحاكي موضوعات الرجل الشاعر و تتبنى لغته " [23] متناسية ذاتها المبدعة الأنثى، منبهرة مقلدة مقتفية الآثار الفنية و البصمات اللغوية والخطوات الذكورية في صحراء الإبداع القاسية التي لا ينبغي لكثيرهن أن يغامرن فيها بزاد شعري قليل ، ودراية بجماليات الشعر ، و موارده القليلة عندهن .

رابعا : أشكال القصيدة النسوية :

ينقلنا الناقد يوسف وغليسي من أقصى موضوعات الشعر النسوي –الذكوري – إلى أقصى الأشكال الشعرية في منتجهن ، و هي قصيدة النثر التي كانت ملاذا ، مهربا ، خلاصا ، فلسفة ، ضعفا ، اختيارا .. بالنسبة إلى شاعراتنا الجزائريات حيث "إن عشرات النصوص الأدبية النسوية التي أريد لها أن تتدثر بالشعر المنثور رداء جنسيا، وإنما هي إلى الخاطرة أقرب منها إلى القصيدة " [24]، و هو حكم لم يكد يصدر عن أي ناقد/دارس جزائري تجاه هذا المنتج الشعري /الخواطري /النثري ، الذي ما زال لم يتموقع – جنسيا – و يتأرجح بين أصل غير متفق عليه ، و أفق و واقع ما زال يشكك فيه ، و بقي يبحث عن جماليات إثبات الشخصية .

رغم أن قصيدة النثر حاولت التسلل أكاديميا إلى رسائل الدارسين و أطروحاتهم، يرى عبد العزيز شويط في معرض حديثة عن هذا الكائن الشعري الغريب أن " ما جعل النقاد العرب يدرسونها ، أنها فرضت نفسها كواقع فني لا يمكن الهروب منه . لقد استقرت أكاديمية بعضهم كما استقرت دعوات الموضوعية و العلمية عند بعضهم الآخر فتحتمت عليهم عملية ولوج بابها درسا و تحليلا و نقدا أو حتى تأريخا " [25] ، وإن كان واقع القصيدة النثرية في الدرس الأكاديمي كذلك ، حسب رأي الدكتور عبد العزيز شويط، إلا أن الجرأة النقدية الأكاديمية لم تقف يوما موقف صاحب الفصل في هذه الجناية الفنية على جسد عمود الشعور والشعر،حيث صارت كل النصوص النثرية تفر إلى مصطلح –يثقل بها– وهو القصيدة النثرية، فتكاثرت النصوص، وتكاثر معها استعراض عضلات شعرية نثرية تمكنت من ضبط قدراتها وهما ،ورتبت بيت شعرها – نثرها على عجلة، و بدأت تطرح بدائل تافهة .. وهمية لعمود الشعر وقصيدة التفعيلة بمبررات واهية : إيقاع العصر ، بواعث سيكولوجية ، التجريب الفني،الحداثة .

إن في كتاب " خطاب التأنيث " فصل الخطاب بالنسبة إلى الذات المبدعة المهزومة ،و كذا الذات القارئة المتسامحة و المرتبكة في إبداء رد فعل نقدي جاء على فعل كتابة متشظٍ و مستسهل – و حين اعتمد وغليسي على أكثر من خمسة وأربعين ديوانا نثريا نسويا جزائريا و مئات القصائد النثرية المنشورة في الصحف والجرائد والمجلات، حينها أدرك الناقد أن " استخفاف كثيرات منهن بالعامل الإيقاعي في الشعر و تماديهن في تغليب الوزن العروضي دون البحث عن بدائل إيقاعية داخلية ، و دون أن يكونه لهن من احتياطي اللغة الموقعة ما يعوض الإيقاع الخارجي الغائب ، كثيرا ما يجعل أشعارهن والنثر الفني البسيط سواء " [26]، بعيدا عن أي مزايدة على عمود الشعر وحريته " التفعيلة " ، ومحاولة التخفي وراء حداثة موهومة وتحرر مزعوم ، وتجريب تخريب، على حساب جمالية ننشدها في المنتج الشعري النسوي،وإن " وجود أكثر من خمسين شاعرة نثرية في الساحة النسوية لا يمكن إلا أن يكون دليلا قاطعا على على أن القصيدة النثرية هي جنس نثري لطيف بامتياز "[27]

خامسا :بنية الإيقاع في القصائد العمودية و الحرة :

بعيدا عن قصيدة النثر التي مال إليها نسوة كثيرات ، فإن يوسف وغليسي توقف عند إيقاع القصيدة الموزونة ! لدى شاعراتنا الجزائريات و قد أحصى – فيما تيسر بين يديه من نصوص و دواوين شعرية نسوية 433 قصيدة من خلال 158 مجموعة شعرية لاثنتي عشرة شاعرة ، و خلص إلى أن بعض البحور قد سيطرت على قصائدهن و رتبها الناقد الشاعر العروضي المتمكن وغليسي على هذا النحو :

الرمل 117 – المتقارب 104 – الرجز 78 – المتدارك 56 – البسيط 12 – الطويل 11 – الكامل 10 الوافر 04 – المديد 01 – الهزج 01 – التنويع العروضي 27 .

و منه فإن " الرمل هو سيد البحور و رائدها في الفضاء الشعري النسوي الجزائري إذ يهيمن على أكثر من ربعه 27.02 % "[28]، ربما لأنه بحر النشيد الوطني و هي تخريجة إيقاعية ذكية ، لأن في ذاكرة شاعراتنا و شعرائنا و مواطنينا جميعا يتموقع هذا الإيقاع الخالد .

كما أن وغليسي اتكأ على المنهج الإحصائي في هذا المبحث بقوة لأن في الإحصاء ما يدلل على بعض الظواهر الأدبية في منتجهن الشعري ، و خلص من خلالها وغليسي – في جانبها الإيقاعي – إلى أن " سيطرة الشعرية النسوية الجزائرية على عشرة أوزان معناه أنها استنفدت 62.5 % من الإمكانيات الإيقاعية التي تتيحها الدائرة العروضية "[29]، رغم أن الكثير من نصوصهن قد كان إيقاعها مكسورا ، وكان الإيقاع في حضرة نصوصهن ملهى شعريا راقصا على حد تعبير وغليسي ، و"لعل أسوأ مظاهر الهلهلة في البناء الشعري النسوي أن يكون ذلك الشكل الذي تعمد الشاعرة – خلاله – إلى كتابة قصيدةو نثرية خالية من الوزن ثم تقوم بتصفيفها في هيئة قصيدة عمودية تقوم على نظام الشطرين المتناظرين خطيا "[30]، و سماها وغليسي بالبنية المهلهلة !! و في مشهدنا الشعري الجزائري مهلهلات كثيرات .. كانت نصوصهن زيرا إيقاعيا معتق البحور إلى درجة ذوبان / انكسار رهيب .

سادسا : معجم الشواعر الجزائريات :

كونها تكليفا و تشريفا في الوقت نفسه ، لا يمكن أن نصف مجهودات الدكتور وغليسي في هذا المسح الكمي والنوعي ، أشكالا و مضامين ، من خلال إحصاء سبع وثمانين شاعرة جزائرية و تصنيفها في معجم / مرجع هام و سابقة معجمية رائدة،وهذا " معجم مقصور على الشواعر الجزائريات اللائي يكتبن بالعربية الفصحى، وهو الأول من نوعه في تاريخ الشعر الجزائري " [31]، و فيه بذل الناقد أقصى المجهودات المسيجة بالروح العلمية ، والمنهجية الأكاديمية من أجل أن يقارب المنتج الشعري النسوي شكلا و مضمونا ، وكذا بعرض سير مختصرة لشاعراتنا الجزائريات ..

يقول وغليسي عن معجم الشاعرات الجزائريات الذي أورده في آخر كتابه : "خطاب التأنيث " : "بل حاولت أن أجعله معجما نقديا يدرس الحالة الشعرية المفردة باقتضاب " [32]، وإن بدا وغليسي يعشق التميز في كتاباته النقدية دائما ، إلا أنه كان دائم الاطلاع على إرث سابقيه ، فالناقد الجيد قارئ أجود ليقف عند جهود السابقين ويضيف إليها ، أو يتجاوزها ،و في ذلك يعترف وغليسي قائلا : " و لقد حرصت الحرص كله على الاطلاع الأبين على كل الكتابات المتاحة التي سبقتني إلى كل شاعرة (ولو بلغة الإشارة !) و الاستفادة مما يمكن الإفادة منه مع حرص خاص على أن تكون المادة المقدمة حول أي شاعرة مختلفة عن المواد التي كتبت عنها من قبل (و إن كان الموضوع واحدا) " [33]

خاتمة :

ويعد هذا المعجم النقدي – الذي كان خاتمة علم و مجهود أكاديمي جبار غير مسبوق – مرجعا جيدا للباحثين في عوالم الكتابة الشعرية النسوية العربية في الجزائر ، كاشفا عن اطلاع و بحث ، تحليل و إحصاء ، تقديم و توصيف ، قراءة واعية عميقة متميزة لهذا الشاعر أولا،الأكاديمي ثانيا ، العارف بجماليات التخاطب الشعري النسوي في تركاتهن الإبداعية، والذي وضع أدواته القرائية على جرح الكتابة النسوية في الجزائر بين منطلقاتها ، ومصطلحاتها وبنياتها المختلفة ، مُصدرا رأيه النقدي العارف الفاصل في

قوله:" إن ارتباط نص المرأة بالسياق النسوي العام في شكل " خطاب شعري أنثوي " هو الذي يضفي نكهة ثقافية معينة على ذلك الخطاب ، نكهة في مقدورها تأمين قراءة الذات الشاعرة المؤنثة ، و القبض على الخصوصية الجمالية والدلالية لشعر الأنوثة "[34].

وهو رأي يكشف عن خطورة مقاربة النص الشعري النسوي العربي في الجزائر مفهوما وأشكالا ومضامين ومنطلقات وقراءات إلا من خلال وعي مقارباتي / قرائي / نقدي مؤسس فعال محايد

وهو ما حاول وغليسي فعله في كتابه " خطاب التأنيث " فعلا .

الهوامش:

1-شوقي ضيف : النقد ، ط3 ، دار المعارف بمصر ، 1974 ، ص08

2-عبد الرحمن عبد الحميد علي : النقد الأدبي بين الحداثة و التقليد ، ط1 ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، 2005 ، ص131 .

3-المرجع نفسه ، ص 121 .

4-المرجع نفسه ، ص 126 .

5-يوسف وغليسي : خطاب التأنيث- دراسة في الشعر النسوي الجزائري- منشورات محافظة المهرجان الثقافي الوطني للشعر النسوي ،قسنطينة 2008، ص 13 .

6-المصدر نفسه ، ص 14 .

7-المصدر نفسه ، ص 12 .

8-المصدر نفسه ، ص 21 .

9-المصدر نفسه ، ص 26 .

10-عبد الحميد شكيل: ملابسات حول الكتابة النسوية في الجزائر ، منشورات محافظة المهرجان الثقافي الوطني الثاني للشعر النسوي ، ط1 ، قسنطينة ، 2010 ، ص 54 .

11-عبد الرزاق بلال: مدخل إلى عتبات النص ، إفريقيا الشرق - المغرب ، 2000 ، ص 16.

12-المرجع نفسه ، ص 42 .

13-يوسف وغليسي : المصدر السابق ، ص69 .

14-المصدر نفسه ، ص 70 .

15-المصدر نفسه ، ص 69 .

16-عبد الملك مرتاض : " شاعرات الجزائر المعاصرات " تقديم للشعرية النسوية ، منشورات محافظة المهرجان الثقافي الوطني الأول للشعر النسوي ، ط3 ، 2010 ، قسنطينة ، ص 07

17 – يوسف وغليسي : خطاب التأنيث ، ص 73 .
18– المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
19 – المصدر نفسه ، ص 47 .
20– المصدر نفسه ، ص 78 .
21– المصدر نفسه ، ص84 .
22 – المصدر نفسه ، ص86 .
23 – المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
24 –المصدر نفسه ، ص 87 .
25 –عبد العزيز شويط : " القصيدة النثرية " ، مجلة الناص ، تصدر عن جامعة جيجل ، الجزائر ، العددان 4 و5، أفريل . جويلية ، 2005 ، ص 172 .
26 – يوسف وغليسي : المصدر السابق ، ص 90 .
27 – المصدر نفسه ، ص91 .
28 – المصدر نفسه ، ص 114 .
29 – المصدر نفسه ، ص 111 .
30 –المصدر نفسه ، ص 94 .
31 –المصدر نفسه ، ص 118 .
32 –المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
33 –المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
34–المصدر نفسه ، ص 11 .